استمرار المقاومة الوطنية خلال القرن 19م:

ثورة بوعمامة(1881-1908) وعلاقتها بدول الجوار

مقدمة:

يعتبر محمد بن العربي بن ابراهيم المدعو بوعمامة(1838-1908) والمنتمي لأولاد سيد الشيخ الغرابة من أبرز قادة الثورات الشعبية المسلحة الوطنية، الذي أبلى من خلال ثورته1881 بلاء حسنا في الدفاع عن الأرض الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، وتعتبر ثورته هاته امتدادا لثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة التي اندلعت سنة 1864 بالجنوب الغربي من البلاد المعبرة عن رغبة الشعب الجزائري في التحرر وطرد المستعمر بصفة نهائية من الجزائر.

فماهي الظروف المحيطة باندلاع ثورة بوعمامة؟وفيم تمثلت دوافعها الحقيقية؟وماهي الانجازات التي حققتها؟وماذا عن سياسة فرنسا في مواجهتها؟وماهي أبرز العقبات التي أعترضت مسار الثورة؟

1.الدوافع الحقيقية للثورة والظروف المساعدة على قيامها:

لاشك أن الدافع التحرري الوطني هو المحرك الرئيسي لثورة الشيخ بوعمامة بالجنوب الغربي من الجزائر على غرار كل المناطق الجزائرية الأخرى التي كانت مسرحا للمقاومات الشعبية المسلحة طوال القرن 19م الرافضة للوجود الاستعماري بالأرض الجزائرية، خاصة بعدما تمكن المحتل من التوغل في المنطقة ووصوله إلى مشارف المجال الذي كان يسيطر عليه أولاد سيدي الشيح الذين أصبحوا يشعرون بخطورة مراكز المراقبة التي شرع العدو في إقامتها هناك منذ بداية الخمسينيات القرن 19م.

ومن جهة أخرى تضافرت عدة عوامل مشجعة دفعت بأبي عمامة ورفاقه إلى إعلان الثورة سنة 1881ضد المحتل،يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

-دور سلطات الاحتلال وضباط المكاتب العربية في إثارة الفرقة والشقاق و الخصومات بين أفراد الأسرة الشيخية،خاصة بين فرعي الشراقة و الغرابة وما ترتب عنه من انعكاسات سلبية على جميع السكان المرتبطين بهذين الفرعين ،الأمر الذي جعل بوعمامة يمتعض كثيرا من سياسة فرنسا في المنطقة ويتطلع لمواجهتها

-دعوة جمال الدين الأفغاني والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني الداعية إلى جمع شمل المسلمين في إطار الجامعة الإسلامية، وتأثيرها على فكر الشيخ بوعمامة ،سيما وأنه رجل ديني وصاحب زاوية،حيث رأى في هذه الدعوة الظرف الملائم لإعلان الثورة رفقة أتباعه بهدف تحرير الوطن من المحتل الفرنسي ذي النزعة الصليبية.

-إقدام السلطات الفرنسية على ترحيل عدد هام من قواتها العسكرية من المنطقة الوهرانية إلى تونس للمشاركة في استكمال غزوها سنة 1881 ،الأمر الذي حفز بوعمامة على استغلال هذه الفرصة وتفجير الثورة

-شخصية بوعمامة الرافضة للاحتلال،بسبب تربيته الإسلامية وتقديسه للجهاد وروحه الوطنية، ولكونه أيضا صاحب زاوية تابعة للطريقة الشيخية التي أسسها سنة 1874بالمغرار التحتاني(حوالي 60 كلم جنوبي عين الصفراء) اتخذها كمركز لنشر الوعي الثوري الوطني ،حيث استطاع بواسطتها تنظيم وتعبئة القبائل المختلفة لخدمة الثورة

- الأخبار المتعلقة بانتفاضتي سكان واحة العمري1876(الجنوب الشرقي من بسكرة)،وسكان الأوراس 1879 ضد الاحتلال الفرنسي التي كانت ترد على المنطقة الغربية عن طريق الصحراء ساهمت بدورها في إذكاء شعلة الثورة

2.السبب المباشر لإندلاع الثورة:

قام بوعمامة في مطلع سنة 1881 بدعاية ثورية واسعة،من خلال زياراته المتعددة لعدد من المناطق و القبائل الصحراوية لتعبئتها للكفاح التحرري،وأرسل مبعوثين عنه إلى القبائل لتحريضهم على الثورة،و في 22 أفريل من نفس السنة اغتيل الضابط الفرنسي ((و اينبرونر weibrenner)) رئيس المكتب العربي بالبيض -مع أربعة من حراسه -عندما حاول اعتقال بالقوة مبعوثين لبوعمامة(الطيب بن جرماني و مرزوق السروري) إلى قبيلة الجرامنة،فكان لهذا الحادث بمثابة الفتيل الذي أشعل النار،و فجر الثورة و من ثمة زاد من حدة الصدام بين بوعمامة و القوات الفرنسية

3.مراحل تطور الثورة:

1.3.المرحلة الأولى(1881-1883):

بعد مقتل الضابط الفرنسي((و اينبرونر)) شن الثوار عدة هجومات على القوات الفرنسية و وقعت معارك ضارية بين الطرفين،منها معركة سفيسفة جنوب عين الصفراء يوم 27 افريل 1881،و معركة المولاك(جنوب عين تازينة بين البيض و عين الصفراء) يوم 19 ماي من نفس السنة التي خسر فيها الفرنسيون حوالي 60 قتيلا و 22 جريحا.

وبفضل هذا الانتصار الذي حققه جيش بوعمامة انتشرت الثورة في عدة مناطق من الهضاب كتيارت وسعيدة وفرندة وحتى المناطق الجنوبية الصحراوية .

واستغل بوعمامة هذه الظروف وقام بتنظيم مسيرة طويلة نحو التل من أجل دعوة القبائل لالتحاق بصفوف الثورة وقد شكلت هذه المسيرة التي استمرت 23 يوما(من 30 ماي إلى 21 جوان1881) -قطع خلالها الثوار حوالي 730 كلم -شكلت انتصارا جديدا لبوعمامة الذي تمكن من اختراق الحد الفاصل بين التل والصحراء رغم التعليمات العسكرية الفرنسية الصارمة لمنع بوعمامة والثوار من الوصول إلى التل، واستهدف خلالها الثوار مصالح المستوطنين الأوروبيين كمستودعات الحلفاء التي تعرضت للحرق وخطوط التلغراف التي خربت،واغتيال عدد من الجنود والأعوان الفرنسيين في الهضاب العليا، وأيضا غنم قطعان الماشية لبعض القبائل الجزائرية المتعاونة مع المحتل.

وقدرعدد القتلى من الفرنسيين والإسبان بحوالي 287 قتيلا،وبلغت الخسائر المادية حوالي مليون فرنك فرنسي قديم،واضطرت السلطات الفرنسية إلى التعجيل بإعادة جزء من قواتها العسكرية التي ارسلت الى تونس لغزوها سنة 1881 لمواجهة ثورة بوعمامة،كما دفعت بها هزائمها إلى الإسراع بإكمال انجاز الخط الحديدي الرابط بين أرزيو وسعيدة لنقل المؤن والذخائر والجنود واستنجدت أيضا بالباشاغاوات والقياد لكل من البيض ومعسكر وتيارت وسعيدة لإضعاف الثورة.

2.3.المرحلة الثانية(1883-1908):

تميزت هذه المرحلة بغلبة الطابع السياسي على الجانب العسكري لثورة بوعمامة بعدما انسحب إلى الجنوب بسبب مضايقة العدو له،فانصب اهتمامه خلال هذه الفترة على استخدام المراسلات و الوساطات لتحقيق المفاوضات بينه و بين الفرنسيين للحفاظ على نفوذه،و سعى أيضا لاستقطاب الزعماء و القبائل للجهاد ،و قد قام هذا الاخير بهذا العمل أثناء وجوده بقصر دلول في قورارة بمنطقة توات التي قصدها بهدف تنظيم صفوف المقاومة و الاستعداد للمواجهة ،خاصة بعدما تلقى الترحاب و التشجيع من طرف سكان المنطقة كسكان تديكلت و قبائل تافيلالت،و تمكن من ربط صلات مع عدة قبائل صحراوية. و بفضل نشاطه السياسي المتزايد بمرور الوقت امتدت حركته إلى مختلف الجنوب الغربي كما استطاع مراسلة السلطات الفرنسية و كسب ود السلطان المغربي لمساعدته.

و بعدما تمكن الفرنسيون من احتلال توات،انتقل بوعمامة في سنة 1896 إلى منطقة فقيق بالمغرب بهدف بعث مقاومته من جديد ضد المحتل سيما و انه تلقى كل التشجيع من طرف سكان المنطقة،الأمر الذي اغضب السلطات الفرنسية و قيامها بالضغط على المغرب ليقوم بمساعدتها على وضع حد لنشاط بوعمامة فوق ترابه و عقدت معه في هذا الصدد اتفاقية الحدود سنة 1902 مما دفع بالسلطان المغربي مولاي عبد العزيز بمطالبة بوعمامة بمغادرة بلاده فتوترت بذلك العلاقات بين الطرفين.

اغتنم بوعمامة فرصة قيام انتفاضة الجيلالي الزرهوني(المدعو بوحمارة) ضد حكومة السلطان المغربي الموالية للفرنسيين و تحالف معه-الزرهوني- ،حيث شارك بوعمامة بقواته في عدة مواجهات بإقليم وجدة خلال فترة(1904-1906)،لكن سرعانما تمكنت القوات المتحالفة الفرنسية و المغربية من القضاء على هذه الانتفاضة،و اضطر على إثر ذلك بوعمامة إلى

التراجع بقواته إلى الحدود،و استمرت القوات المغربية من جهة و القوات الفرنسية من جهة أخرى في ملاحقته، إلا أنه رفض الاستسلام و أصر على المقاومة حتى وافته المنية سنة 1908.لكن ذلك لم يمنع استمرار تأجج روح المقاومة المسلحة في نفوس الجزائريين لغاية اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954 المباركة

و يمكن ان نستخلص أبرز الأسباب التي كانت وراء تعثر هذه الثورة على النحو الأتي:

-محاصرة السلطات الفرنسية للثورة في المناطق السهبية و الصحراوية، و عزل القبائل عنها بواسطة الضغط و مصادرة أملاكها ولايقاع بينها لتفريق كلمتها، و أيضا عن طريق الإغراء بالمال و المنصب لاستمالتها إلى صف المحتل

-التفوق العسكري للعدو مقابل نقص الامكانيات المادية و انعدام المساعدات الخارجية لثورة بوعمامة،الذي و تدهورت ظروفه الصحية في السنوات الأخيرة من الثورة ،ضف إلى ذلك تقدمه في السن ،الذي مثل عقبة كأداء في وجه عمله العسكري و تنقلاته

- دور الخونة في إضعاف الثورة،على رأسهم القياد و الأغاوات والباشاغاوات

-نجاح فرنسا في إثارة الشقاق بين قبائل سيدي الشيخ (الشراقة و الغرابة)

-دور المراكز الاستعمارية التي أقامتها فرنسا في المنطقة في عزل الثورة

ومما لاشك فيه أن ثورة بوعمامة كانت من أشد الثورات الشعبية المسلحة الوطنية التي كبدت العدو خسائر جسيمة مادية وبشرية،وعبرت كغيرها من المقاومات الشعبية المسلحة عن رفضها للاحتلال هذا من جهة،ومن جهة أخرى كشفت هذه الثورة عن قوة شخصية قائدها

بوعمامة وما تميزبه أيضا من صبروثبات على المبدأ،وإدراكه لمكر الأعداء وخططهم،وإيمانه القوي في خوض العمل الثوري بشقيه العسكري و السياسي بهدف تحرير الوطن من الوجود الاستعماري الاستيطاني الصليبي .